الزبيدي وإسهاماته في ميدان التأليف

د. بوشريط أحمد*

مقدمة: من نافلة القول أن نفتتح الكلام في هذا المقام بتلك الدراسات التي اهتمت بالجانب العلمي، والتي برزت فيها عدّة شخصيات علمية خاضت في ميادين معرفية شتّى، إلاّ أنّ بعضها برز في ميدان على حساب ميادين أخرى، فمن بين هذه الشخصيات العلمية البارزة التي ظهرت على السّاحة العلمية الأندلسية، والتي طارت شهرتها شرقا وغربا، الشخصية العلمية الأدبية واللّغوية النّحوية، العالم الجليل أبو بكر الزبيدي الذي ظهر في القرن الرّابع الهجري (10م).

عاصر الزبيدي عهد الخلافة والمتمثلة في الخليفتين عبد الرّحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله، فالأوّل وطّد لحكم السلالة الأموية بهذه البلاد، وبخاصة من الناحية العسكرية مع عدم إهماله للجانب العلمي، في حين تربّع الثاني على سدّة الحكم وقد وجد البلاد تعيش في أمن واستقرار، الأمر الذي ساعده على الاهتمام بالجانب العلمي، فعمل على تشجيع العلم والعلماء، الأمر الذي انعكس إيجابا على عطاءاتهم الفكرية، وبرز علماء جلّة في مختلف الميادين، واستفادوا بمؤلّفات من سبقهم، كما أفادوا هم كذلك بما جادت به قريحتهم من مؤلّفات في مختلف العلوم والتي لا زالت محتوياتها محفوظة في مضان الكتب. والتي اعتمد عليها مؤلّفوها بشكل أكبر.

في ظلّ هذه الظروف، عاش عالمنا الزبيدي وفي جوّ علمي ساعده كثيرا على البروز، وأصبح بعدها أحد الأعلام الأندلسيين البارزين الذين يزخر بهم فردوسنا المفقود، وأحد الهضاب الرّاسية التي قلّما يجود الزمان بأمثال هؤلاء العلماء. تلك هي الشّخصية التي نودّ الوقوف عندها لإبراز إسهاماتها العلمية، وبخاصة تلك الكتب التي قام بتأليفها لنقف على مكنوناتها، فمنها ما نجا من عاديات الزمان وأيدي العابثين بهذا التراث النفيس، ومنها ما ضاع ضمن ما ضاع منه، وقد يأتي يوم على هذا الكتر - الذي يعتبر في الوقت الرّاهن مفقود- ويعثر عليه من طرف بعض الباحثين الذين لا يَكِلُّون في البحث عنه، ثم يقومون بدراسته وتحقيقه ليرى النّور مرّة ثانية بحول الله تعالى، وبالتالي يقوم مثل هؤلاء الباحثين بإعادة الاعتبار لتراثنا العربي الإسلامي.

*أستاذ محاضر أ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم العلوم الإنسانية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر.

1- التعريف بالمؤلّف: هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن مَذْحِج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الحمصي، المكنى أبا بكر. أصله من إشبيلية وسكن قرطبة. ولد سنة 316هـ/928م بإشبيلية.[1] ولتمكّنه في العلوم، فقد أسندت له عدّة مهام، نذكر منها: استدعاء الحكم المستنصر بالله له لتأديب ولده ووليّ عهده هشام المؤيّد، وهذا ما يفهم من كلام ابن حيان حين قال: "وفي يوم الأحد للنصف من ذي القعدة منها نفذ بن حسن الزبيدي ثم الإشبيلي النّحوي بالتزام مدينة الزّهراء لمجالسة الأمير أبي الوليد هشام بن أمير المؤمنين ومفاتحته الترر في العربية"،[2] فنال بذلك مكانة مرموقة وحظوة لدى البلاط الأموي، وبعده وليّ قضاء إشبيلية كما وليّ خطة الشّرطة.[3] كما تولى خطة الوزارة.[4]

أما عن وفاته، فقد اختلفت المصادر في تعيين سنة بعينها، فابن الفرضي قال: أنّه توفي يوم الخميس مستهلّ جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة. ودفن ذلك اليوم بعد صلاة الظهر.[5] وتبعه في ذلك ابن فرحون.[6] في حين ذهب الحميدي للقول: أنّه توفي قريبا من الثمانين وثلاثمائة.[7] وهو ما ذهب إليه ابن سعيد،[8] وأما الضبي الذي ينقل عن الحميدي نقلا حرفيا، فقال: أنّه توفي قريبا من الثلاثين وثلاثمائة.[9]

أ- نسبه: أما نسبة "الزبيدي" التي انتسبت إليها أسرته، فلا نجد للمؤرّخين اتفاق في ضبطها، فمنهم من ضبطها على هذا النحو، الزُبيدي وذلك بضم الزاي، ومنهم من جعلها مفتوحة بهذا الشّكل، الزَبيدي، ومن هنا نلحظ ذلك الاختلاف الوارد في المصادر التي ترجمت له بخصوص هذه النسبة وذلك حسب حركات حرف الزّاي.

أما الزُبيدي: بضم الزاي، أي: بالتصغير فهي نسبة إلى زُبيد قبيلة من مَذْحِج منسوب إلى زُبيد، واسمه مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وقال خليفة بن خياط: هو مُنَبِّه بن ربيعة بن سامة بن مازن بن ربيعة بن الحارث ابن صعب بن سعدِ العشيرة بن مَذْحِج، بطن من مذحج، منهم أبو ثَوْر عمرو بن مَعْد يكَرِب، وجماعة سواهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأكثرهم بالشّام.[10]

وعلى الرّغم من أنّ ياقوت الحموي يضبطها بالفتح، فهو يرجعها إلى نفس سلسلة النّسب التي جاء بها الحازمي الهمداني: وهي الزَّبيديُّ: نسبة إلى زَبيد بن صعب بن سعد العشيرة رهط عمرو بن معد يكَربَ الزَّبيديِّ.[11]

أما الزَبيدي: بفتح الزاي وكسر ما بعدها وياء مهملة، فهذه النّسبة تعود إلى زَبيد ، وهي مدينة باليمن.[12]

ب- أسرته: يظهر من خلال مطالعتنا لكتب التراجم، أنّ الزبيدي ينتمي إلى أسرة علمية خاض بعض أفرادها في ميادين علمية شتّى، هكذا كان شأن البيوتات العلمية التي ورث أبناؤها العلم كابر عن كابر، ولذلك وصفت بعض المصادر هذا البيت أو ذاك بعدّة أوصاف، منها: بيتة علم ونباهة وجلالة وقدر.

ومن أفراد هذه الأسرة التي برزت على السّاحة العلمية، نخصّ بالذكر منهم: والد الزبيدي وابنيه:

الوالد: وهو الحسن بن عبد الله بن مَذْحِج بن محمد بن عبد الله الزبيدي: (المتوفى قريبا من سنة عشرين وثلاثمائة، أو ثمان عشر وثلاثمائة). سمع بالأندلس من عبد الله بن يحيى اللّيثي، ومحمد بن جُنادة وطاهر بن عبد العزيز. كما كانت له رحلة، فسمع بها من شيوخ عدّة، فبمكة المكرّمة سمع من عبد الله بن علي بن الجارود، ومن ابن القمري وإبراهيم بن سعيد الحذّاء، وأبي سعيد عبد الرّحمن بن سعيد والمعروف بالمعلم، وغيرهم. حدّث عنه الباجي وغيره، وأما ابنه محمد بن حسن لم يسمع منه لصغر سنّه.[13]

الابن الأول: هو محمد بن محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي، المكنى أبا الوليد: (كان حيّا سنة 440هـ/1048م).[14]

الابن الثاني: أحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي: الحمصي الأصل ثم الإشبيلي، القاضي هو ابنه الأكبر. سُيّر إلى العدوة فقتله اللّصوص في بعض انتقالاته.[15]

2- مكانته العلمية: يمكن لنا أن نلتمس منزلة الزبيدي العلمية من خلال تتبعنا لتلك العبارة المتناثرة هنا وهناك في مضان المصادر التي عنيت بالترجمة لهذه الشخصية العلمية الفذّة، والتي كشفت لنا ما كانت تختزنه قريحته من إسهامات في ميادين معرفية شتى، وبخاصة في ميدان التأليف، ولذا قامت معظم كتب التراجم بالتنويه بمكانته هذه، فمن هؤلاء المؤرّخين نخصّ بالذكر منهم:

ابن الفرضي: قال في حقّه: "كان واحد عصره في علم النّحو، وحفظ اللّغة".[16]

الحميدي: قال في تحليته: أنّه كان "من الأئمة في اللّغة، والعربية...وكان شاعرا كثير الشّعر".[17]

ابن فرحون: حلاّه في ديباجه، فقال: "كان متفنّنا فقيها أديبا شاعرا وكان مع أدبه من أهل الحفظ، والرواية للحديث...وغلب عليه الأدب، وعلم لسان العرب، فنهض فيه، وصنّف فيه...وكان واحد عصره في علم النّحو وحفظ اللّغة". كما أورد لنا قول ابن حيان ورأيه في هذا العالم، فقال

في حقّه: "لم يكن له في هذا الباب نظير في الأندلس، مع افتنان في علوم كثيرة من فقه وحديث وفضل واستقامة".[18]

القاضي عياض: أورد لنا عدّة أقوال لعلماء جلّة، قاموا بتحليته، وتبيان تمكنّه في العلوم، فهذا أبو عمر بن الحذّاء قال في بيان منزلته في العلم: "لم تر عيني في علمه وأدبه". ولعلمه هذا، فقد كان ابن زرب يقدّمه ويعظّمه، ويزوره.[19]

الفتح بن خاقان: ذكر بأنّه كان "إمام اللغة والاعراب، وكعبة الآداب...وكان أحد ذوي الإعجاز، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز، نجم والأندلس في اقبالها"، ثم يضيف قوله: وبسبب هذه المكانة العلمية التي حظي بها، فقد كان جماعة العلماء تفضّله على غيره.[20]

هذه بعض أقوال من ترجم للزبيدي، والتي عرّفتنا على اتجاهاته العلمية والعلوم التي خاض فيها، إلاّ أنّ هذا العلم لم يأت من فراغ، بل بفضل أولئك الشيوخ الذين أخذ عنهم علومه واستفاد من حلقات الدّرس التي كان يلقيها هؤلاء في المساجد.

3- شيوخه: تلقى العلم على شيوخ تعدّدت مناحيهم العلمية، الأمر الذي سينعكس إيجابا على عطاءات الزبيدي العلمية، سواء من حيث إفادة تلامذته من العلوم التي أخذها عن هؤلاء الشيوخ، أم من انتاجه العلمي والمتمثل بالأساس في تأليفه للكتب والتي ستتعدّد اتجاهات التدوين فيها، فمن هؤلاء الشيوخ الجلّة التي حفلت بهم بعض المصادر التي ترجمت له، نخصّ بالذكر منهم:

*قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح أو واضع- كما ورد عند السيوطي- بن عطاء مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان. من أهل قرطبة يكنى أبا محمد. ولد يوم الاثنين من ذي الحجة سنة 244هـ/859م، أصله من بيانة وسكن قرطبة وهو إمام وقتة من أئمة الحديث وكانت له رحلات لطلب العلم، له عدّة مصنفات منها: كتاب في فضائل قريش وكتاب في الناسخ والمنسوخ، وغيرهما. وابتداء من سنة 337هـ/948م حال ذهنه إلى أن توفي سنة 340هـ/651م عن سن عالية.[21]

*سعيد بن فحلون: (252ه-346هـ/866م-957م) أصله من البيرة وسكن بجانة، يكنى أبا عثمان. سمع بإلبيرة من عدّة شيوخ، نذكر منهم: إبراهيم بن خالد وسعيد بن النمر وإبراهيم بن شعيب، وغيرهم من نظرائهم، وبقرطبة من بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح وإبراهيم بن قاسم بن هلال. كما كانت له رحلة إلى المشرق ليوسّع من مداركه العلمية. كان صدوقا فيما روى، وكانت له أخلاق كريمة، وطال عمره فاحتاج النّاس إليه، فانفرد بروايته.[22]

*أبو علي البغدادي المعروف بالقالي: (288هـ-356هـ/900م-966م) هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان البغدادي المكنى أبا علي. لغوي نحوي، من أروى أهل زمانه للشّعر الجاهلي وأحفظهم له. أصله من قليقالا.[23] أدرك المشايخ ببغداد كابن الأنباري وابن دَرَسْتَوَيْه، وابن دريد وأكثر الرواية عن مشايخ الوقت، وخرج إلى الأندلس إلى عبد الرّحمن النّاصر لدين الله، فأكرمه وأدناه. من مؤلّفاته: "المقصور والممدود" وكتاب "فعلت وأفعلتُ" كما ألّف كتاب "البارع" في اللّغة. وكان من تلامذته أبو بكر الزبيدي وأحمد بن أبان اللّغوي، وغيرهما.[24]

*أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفيّ: من أهل قرطبة المكنى أبا عمر. (284هـ-350هـ/897م-961م).كان كثير الاعتناء بالأثر والسنن وجمع الحديث. سمع على عدّة شيوخ، كان منهم: عبيد الله بن يحيى وسعيد بن عثمان الأعناقي، وأصبغ بن مالك وطاهر بن عبد العزيز، وعبد الله بن محمد بن أبي الوليد الأعرج، كما كانت له رحلة إلى بلاد المشرق، فسمع بمكة المكرّمة من أبي جعفر العقيلي وأبي سعيد الأعرابي وأبي مروان عبد الملك بن بحر بن شاذان الجلاّب المستملي، وبمصر من أبي بكر محمد بن زبّان بن حبيب بن عبد الله الحضرمي، وبالقيروان من أحمد بن نصر ومحمد بن اللّباد وإسحاق بن إبراهيم بن النّعمان، وغير هؤلاء من الشيوخ الجلّة. وعند عودته إلى الأندلس صنّف تاريخا في المحدّثين بلغ فيه الغاية.[25]

4- تلامذته: من بين التلاميذ الذين غرفوا من معين علم هذا العَلَم الجليل، ويأتي في مقدَّمتهم ابناه: محمّد وأحمد.

- محمد بن محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي، المكنى أبا الوليد: (كان حيّا سنة 440هـ/1048م). كان من أهل الأدب والرياسة. روى عن أبيه وعمّه عبد الله. حدّث عنه القاضي أبو إسحاق بن وردون، وغيره.[26]

- أحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي: الحمصي الأصل ثم الإشبيلي، القاضي هو ابنه الأكبر. سُيّر إلى العدوة فقتله اللّصوص في بعض انتقالاته.[27]

- إبراهيم بن محمد بن زكريا الزّهري المكنى أبا القاسم، والمعروف بابن الإفليلي: (352هـ-441هـ/963م– 1049م). كان مع علمه بالنّحو واللّغة يتكلّم في معاني الشّعر وأقسام البلاغة والنقد لها، وكان حافظا للأشعار واللّغة، قائما عليها، كما كان ذاكرا للأخبار وأيام النّاس.

متصدّرا بالأندلس، يقرئ علم الأدب، ويقرأ عليه، ويختلف فيه إليه. روى عن أبي بكر الزبيدي كتاب "النوادر" لأبي علي القالي، وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي، وهو كتاب حسن.[28]

5- مؤلّفاته: لم يبق الزبيدي مجرّد متلق للعلم فقط، و لم تقتصر مجهوداته العلمية على تعاطي العلم بمختلف اتجاهاته، بل جادت قريحته بعدد من المؤلّفات والتي تدلّ عل اتساع أفقه المعرفية، فبمثل هذه المؤلّفات استطاع أن يبرز إسهاماته الجليلة في ميدان يصعب ركوبه، إلا لمن كانت له قدرات علمية وباع طويل تساعده على ركوب مثل هذه الصعاب، فمن هذه المؤلّفات نخصّ بالذكر منها:

طبقات النّحويين واللّغويين: ورد عنوان هذا الكتاب في كتب التراجم التي اهتمت بالترجمة لهذا العالم الجليل، فهذا السيوطي بعد أن عرّفنا على عنوان الكتاب، استحسنه وقال في حقّه: "وهو مجلّد لطيف رأيته بمكة المشرّفة، وطالعته على هذه الطبقات".[29]

يعتبر هذا الكتاب مرجع أصيل لتراجم النّحويين واللّغويين، إذ ترجم فيه من عهد أبي الأسود الدؤلي في صدر الإسلام إلى عهد شيخه أبي عبد الله الرّياحي إمام اللّغة والنّحو بالأندلس في القرن الرّابع الهجري، فضمّ الكتاب 296 ترجمة منها 28 ترجمة للقرويين. فأحاط بجوانب عدّة من حياة هؤلاء المترجم لهم.[30]

أ- مصادر الكتاب: اعتمد الزبيدي في مادة كتابه على مصدرين أساسيين: الرواية الشفهية، وذلك في قوله: "حدثنا قاسم" و"حدّثنا أحمد بن سعيد" ومثلها، "قال ابن سلام" " قال أبو العباس أحمد بن يحيى.[31] ثمّ تليها المصادر التي نقلها من الكتب، منها قوله: "ووجدت في كتاب حمّاد بن إسحاق الموصلي عن أبيه" وقوله: "حكى ابن سلام في طبقات الشّعراء".[32]

الأوّل: الرّوايات الشفهية التي تلقّاها عن شيوخه بالأندلس، وبخاصة ما رواه عن أبي علي القالي، وقد كان ملازما له حين وفد هذا الأخير على الأندلس وعنه أخذ معظم معارفه في اللّغة والنّحو والشّعر والأخبار، كما أخذ عن أحمد بن سعيد الصدفي، وقاسم بن أصبغ، واحمد بن حزم، وسعيد بن فحلون، وغيرهم من رجالات العلم واللّغة والأدب بالأندلس، ومادة هذه الروايات هي معظم الكتاب.

الثاني: ما نقله عن الكتب، مثل: كتاب الأغاني لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، وطبقات الشّعراء لابن سلام، والقراءات لأبي حاتم، وتاريخ اليعقوبي وكتب الخليل في اللّغة والعروض، وقد وشى هذا الكتاب بالغرر والدرر من الأخبار ومحاسن الآداب، وساق كلّ ذلك في نهج سديد وتنسيق مطرد، فجاء فريدا في فنّه وأسلوبه.[33]

ب- منهج المؤلّف: سار المؤلّف في هذا الكتاب على نهج فريد لم يسلكه أحد من قبله، حيث أقامه على الطبقات والمدارس، وترجم لهم حسب التسلسل الزمني، ذاكرا مولد المترجم وتاريخ وفاته، ونتفا من أخباره ومروياته، وأحيانا يذكر شيئا من مصنّفاته. وقد جعل النّحويين البصريين في عشر طبقات، ثم بعدها تعرّض بالدراسة للنّحويين وجعلهم في ست طبقات، ثم رجع إلى اللّغويين البصريين، فجعلهم في سبع طبقات، وجعل اللّغويين الكوفيين في خمس طبقات، ومزج بين النّحويين واللّغويين القرويين في أربع طبقات، وختم الكتاب بالجمع بين النّحويين واللّغويين الأندلسيين في ست طبقات.[34]

مختصر كتاب العين: يعتبر هذا الكتاب من أهم المصنّفات التي صنّفها الزبيدي في اللّغة، وهذا الكتاب يدخل ضمن معاجم اللّغة، وقد أطلق عليه صاحبه اسم: "الاستدراك على كتاب العين". للخليل بن أحمد، وقد أعجب به الحميدي واستحسنه، وهذا ما يفهم من قوله: "واختصر كتاب العين اختصارا حسنا". وذهب نفس المذهب ابن خاقان حين قال: "وله اختصار العين، وهو معدوم النظير والمثيل".[35] ذاع صيت هذا المختصر وأصبح معتمد النّاس في الدراسة بالأندلس، ولا توجد مخطوطاته إلا في مكتبات الأندلس. وهذا المختصر مبوّب بحسب مخارج الحروف، وهو يبدأ بالحروف الحلقية وأوّلها "العين"، وينتهي بالشفهية والمقفلة (أنصاف حروف العلّة). فكان هذا الكتاب من أهم الدراسات التي كتبها الأندلسيون على "العين".

أ- الدافع من تأليفه للكتاب: كان تأليف الزبيدي لهذا الكتاب تلبية للخليفة الحكم المستنصر بالله، إلا أنّ رغبة هذا الأخير لم تكن هي الدّافع الوحيد للقيام بهذا العمل، بل كان ما رأى الزبيدي في "العين" من الخلل والاضطراب، هو الذي جعله في المقام الأوّل يقوم بهذا العمل، ولم يكن المؤلّف يقصد إلى الاختصار وحده، لكنّه –وكما ذكره هو– "مذهبنا أن نصلح ما ألفيناه مختلا في الكتاب، وأن نوقع كلّ شيء منه مواقعه، ونضعه في بابه إن شاء الله تعالى"[36] أي أنّ الزبيدي أعاد ترتيب وتصحيح مادة كتاب العين بمنهج جديد مع الاختصار.[37]

أكسب هذا الكتاب صاحبه الشّهرة وذيوع الصيت في الوسط العلمي بالأندلس وخارجها، فطارت شهرته في مشارق الأرض ومغاربها، واعتبره الأندلسيون من مفاخرهم، الأمر الذي جعلهم يَرْوُونَه وينقلون منه المعلومات التي تخصّهم في الميدان، وللمعلومات القيّمة التي يحتويها هذا الكتاب، فقد فضّلوه على الأصل،[38] وفي هذا الصدد يقول ياقوت الحموي: "وبلغني أنّ أهل الغرب

يتنافسون في كتبه خصوصا كتابه الذي اختصره من كتاب العين، لأنّه أتمّه باختصاره وأوضح مشكله، وزاد فيه ما عساه كان مفتقرا إليه".[39]

كما تكمن أهمية هذا الكتاب، أنّ الحكم المستنصر بالله أعجبه واستحسنه بدليل أنّ هذا الخليفة كافأه واستقبله أحسن استقبال، ووصله بصلة سنيّة وخلعة فاخرة جزاء على الذي تولاّه من اختصاره لكتاب العين للخليل بن أحمد،[40] فارتضى هذا العمل الجليل عندما قام بتصفّحه، وقرّبه إليه، ففاوضه في ها العمل الجليل الذي قام به وبرع فيه، فانتظم اتصال الزبيدي من يومئذ بالخليفة الحكم المستنصر بالله، وكذا بابنه هشام الأمير ووليّ عهده، فاكتسب دنيا عريضة وجاها، ونال حظوة عندهما.[41]

كتاب لحن العامة: يعتبر هذا الكتاب من أقدم المصنّفات التي عني بتأليفها علماء الأندلس، وقد يسمى كتابه هذا، "لحن عوام الأندلس" أو "ما تلحن فيه عوام الأندلس". وقد قام بتأليفه على مرّتين، واستمدّ فكرته من الكتب المشرقية التي كتبت في هذا الموضوع، مثل: كتاب "لحن العامة" لأبي حاتم السجستاني البصري المتوفى سنة 250هـ/864م.[42] وهذا الكتاب اطلع عليه الزبيدي، فحاول أن يستدرك عليه وعلى غيره.[43]

تميّز كتاب الزبيدي هذا، بخصوصية اندلسية، إذ يذكر فيه ما يلحن فيه عوام الأندلس، وأبان عن هدفه في المقدمة، فقال: "ورأيت كثيرا من اللّحن الذي نسبه (أبو حاتم) إلى أهل المشرق قد سلمت عامتنا من موافقته ونطقت بوجه الصواب فيه...ثم نظرت في المستعمل في الكلام من زماننا وبأفقنا فألفيت جملا لم يذكرها أبو حاتم ولا غيره من اللّغويين فيما نبهوا إليه ودلو عليه، مما أفسدته العامة عندنا، فأحالوا لفظه، أو وضعوه غير موضعه".[44]

كتاب الأبنية: ورد في بعض المصادر التي ترجمت للزبيدي بأسماء مختلفة، فقد ورد عند الحميدي بهذا الاسم: "الأبنية"[45] وأما عند السيوطي وياقوت الحموي فيذكرانه على هذا النّحو: "أبنية سيبويه".[46] وأما حاجي خليفة، فيطلق عليه اسم "أبنية في النّحو"، وقد أشاد به بقوله: "وهذا الكتاب من نوادر الدّهر"،[47] وورد عند عمر رضا كحالة بهذا الاسم: "الواضح في العربية".[48]

الانتصار للخليل: وفيه استدراكات على كتاب العين، وذكره السيوطي في كتابه "المزهر"، وسمّاه: "استدراك الغلط الواقع في كتاب العين"، ونقل جزءا منه. وذكره ابن فرحون بهذا الاسم "كتاب غلط صاحب العين".

الواضح:[49] وهو كتاب يدرس كلّ ما يتعلّق بالنّحو. أطلق عليه ابن فرحون والقاضي عياض اسم "الواضح في النّحو".[50] وأما السيوطي فقد ورد عنده بهذا الرّسم "الموضّح".[51]

هتك ستور الملحدين: وهو كتاب في الرّد على ابن مسرّة وأهل مقاتلته.

الخاتمة: لا يخامرنا الشّك في أنّ ثقافة الزبيدي تنمّ عن تلك المنزلة التي انتزعها من الوسط الذي عايشه، وأما الذي ساعده على ارتقاء سلّم الشّهرة والمجد، تلك الأسرة التي كان ينتمي إليها هذا العالم، بحيث خاض كلّ أفرادها في ميدان العلم بشتى أنواعه، ولذا نستطيع القول أنّ بيته بيتة علم ونباهة، أضف إلى ذلك تشجيع حكام بني أميّة للعلم والعلماء، وبخاصة الحكم المستنصر بالله، الأمر الذي ساعده على أن يطلق العنان وأن يفرج على ما كان يكتنزه صدره من معارف في ميادين معرفية شتى.

من خلال ما تقدّم ذكره، يمكن الخروج بالنتائج التالية:

- اختلاف المصادر في تحديد سنة الوفاة، قد تُصَعِّب علينا معرفة الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم، وكذا تحديد أهم تلامذته. كما أنّ عدم اهتمام المؤرّخين بضبط المواليد والوفيات، قد يوقعنا في الخلط بين الشخصيات، وبخاصة إذا تشابهت في الأسماء والكنى.

- احتلاله لمكانة مرموقة لدى البلاط الأموي، لا لشيء إلا لأنه كان يتمتّع بمكانة علمية في مشارق الأرض ومغاربها.

- أسندت له عدّة مهام بسبب تفقهه في العلم، فاعتلى مراتب عليا في الدولة، والخطط السَنِيَّة الرّفيعة.

- إنّ تأثر الزبيدي بشيوخ من مختلف الأصقاع، ساعدته على تنويع ثقافته المعرفية، وهذا ما سينعكس إيجابا على انتاجه العلمي.

- لم يبق الزبيدي مجرّد متلق للعلم وتعليمه، بل أصبح من المؤلّفين الكبار، وبخاصة في علوم اللّغة، فلذلك حاز على مكانة مرموقة لدى علماء اللّغة، وكتب التراجم التي اعتنت بعلماء خاضوا في هذا الميدان.

- إنّ المنهج الذي اتبعه في كتاباته، ينمّ عمّا تختلجه قريحة هذا العالم من رغبة في التجديد وعدم التقليد، فسلك بذلك نهجا لم يسلكه أحد من قبله، وهذا ما نلاحظه جليّا في كتابه "طبقات اللّغويين والنحاة".

الهوامش:

*- ابن الفرضي الأزدي عبد الله بن محمد: تاريخ علماء الأندلس– تحقيق صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية– صيدا– بيروت– ط1- 1427هـ/2006م– ج2- 84- ابن فرحون المالكي إبراهيم بن نور الدين: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب– دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجنّان– دار الكتب العلمية– بيروت– ط1- 1417هـ/1996م– ص 388.

2- ابن حيان الأندلسي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس– شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية– صيدا - بيروت– ط1- 1426هـ/2006م– صص 101- 102- النباهي علي بن عبد الله المالقي: تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا– قدم له وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية – صيدا – بيروت - ص 93.

3- السيوطي جلال الدين عبد الرّحمن: بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة- تحقيق محمد عبد الرّحيم- دار الفكر- بيروت- ط1- 1425هـ- 1426هـ/2005م- ص 94.

4- المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب– شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية– صيدا– بيروت – ط1- 1426هـ/2006م– ص 31- 72.---- 5- ابن الفرضي: نفسه– ج2- ص 84.---- 6- ابن فرحون: الديباج– ص 359.

7- الحميدي محمد بن أبي نصر فتوح: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس– قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري– المكتبة العصرية– صيدا– بيروت – ط1- 1425هـ/2004م- ص 55.

8- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب– حققه وعلق عليه شوقي ضيف– دار المعارف– القاهرة– ط4- 1964م– ج1- ص 256.

9- الضبي أحمد بن يحي بن عميرة: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس– قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري – المكتبة العصرية – صيدا– بيروت– ط1- 1426هـ/2005م– ص 64.

10- الحازمي الهمداني أبو بكر محمد بن أبي عثمان- عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب– حققه وعلّق عليه وفهرس له عبد الله كنون– دار الآفاق العربية– القاهرة – ط1- 1422هـ/2002م- ص 103- السيوطي: بغية الوعاة- ص 95.

11- ياقوت الحموي: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب- حققه وضبط نصوصه وأعدّ حواشيه وقدّم له عمر فاروق الطباع– مؤسسة المعارف– بيروت– ط1- 1420هـ/1999م– مج6- ص .619

12- السيوطي جلال الدين عبد الرّحمن– لب اللّباب في تحرير الأنساب– محقق على نسخة خطيّة بإشراف مكتب البحوث والدراسات – دار الفكر- بيروت– ط1- 1422هـ/2002م- ص 199.

13- ابن الفرضي: المصدر السابق– ج1- ص 110- الحميدي: المصدر السابق– صص 188- 189.

14- الحميدي: نفسه- صص 45- 46- قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية– رجال المالكية من كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي– دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث– دبي– الإمارات العربية المتحدة– ط1- 1423هـ/2002م– ج3- صص1188- 1189.

15- قاسم علي سعد: نفسه- ج1- صص 247- 248.---16- ابن الفرضي: نفسه– ج2- ص 84.

17- الحميدي: نفسه– ص 52.----18- ابن فرحون: نفسه– صص 358- 359.

19- عياض ابو الفضل بن موسى اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك– ضبطه وصحّحه محمد سالم هاشم– دار الكتب العلمية– بيروت– ط1- 1418هـ/1998م– ج2- ص 201.

20- ابن خاقان أبو نصر الفتح: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس– مطبعة الجوائب– قسنطينة– 1302هـ- صص 53- 54.

21- ابن الفرضي: المصدر السابق– ج2– صص 318- 319 - السيوطي: طبقات الحفاظ- راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء- دار الكتب العلمية- بيروت- 1403هـ/1983م- ص354 - وتنظر ترجمته عند ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب– أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط- حققه وعلّق عليه محمود الأرناؤوط- مج4 ص357- دار ابن كثير– دمشق- 1410هـ/1989م- ابن فرحون: الديباج المذهب- صص321- 322- الذهبي: سير أعلام النبلاء– أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط– حقق هذا الجزء إبراهيم الزيبق– مؤسسة الرسالة– بيروت– لبنان– 1406هـ/ 1986م– ج15- صص472- 474- محمد بن محمد بن مخلوف- شجرة النور الزكية- دار الكتاب العربي- بيروت لبنان- 1349هـ- ص88– 89- عادل نويهض: معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحالي- مؤسسة نويهض الثقافية- 1406هـ/1986م- مج1- ص431-432

22- ابن الفرضي: المصدر السابق– ج1- صص 162- 163.

23- ترد بهذا الرّسم في بعض المصادر "قالي قالا". هي إحدى المدن المتاخمة لبلاد الرّوم. حسنة جليلة عامرة. تغلّب عليها الرّوم عدّة مرّات وانقذها المسلمون من أيديهم، وعندما سئل أبو علي لماذا قيل له "القالي"، فقال: "انحدرت إلى بغداد في رفقة فيها أهل قالي قلا، فانتسبت إلى قالي قلا". الحميري

عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار– تحقيق إحسان عباس– مكتبة لبنان– ط2- 1984م– ص 447- أبو الفدا إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان – اعتنى بطبعه وتصحيحه رينود وماك كوكين ديسلان– دار صادر بيروت– 1840م– ص 59- 278.

24- القفطي: إنباه الرّواة على أنباء النحّاة- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم– المكتبة العصرية– صيدا– بيروت– ط1- 1424هـ/2004م- ج1- ص 239 وما يليها- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين- اعتنى به وجمعه وأخرجه مكتب تحقيق التراث- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط1- 1414هـ/1993م- ج1- صص 374- 375.

25- ابن الفرضي: نفسه– ج1- صص 53- 54- الحميدي: نفسه – صص 127- 128.

26- الحميدي: نفسه- صص 45- 46- قاسم علي سعد: جمهرة تراجم الفقهاء المالكية– ج3- صص1188- 1189.

27- قاسم علي سعد: نفسه– ج1- صص 247- 248.----28- القفطي: إنباه الرواة– ج1- ص218 وما يليها.

29- السيوطي: بغية الوعاة–ص 94- وينظر رضا هادي عباس: محاضرات في التاريخ والحضارة– منشورات إلجا- ELGA- 1998م- ص 77.

30- الزبيدي: طبقات النحويين واللّغويين- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم– دار المعارف– مصر – 1973م- مقدمة المحقق– ص1- عبد القادر بوباية: المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس– كوكب العلوم للنشر والتوزيع– الجزائر- ط1- 1432هـ/2011م– ص 44.

31- الزبيدي: نفسه– ص 15- ص 16- ص 31- ص 139.----32- الزبيدي: نفسه– ص 77- ص 162.

33- الزبيدي: طبقات اللّغويين– مقدمة المحقق– ص 2.

34- الزبيدي: نفسه– ص2- 17- طه عبد المقصود: الحضارة الإسلامية- دراسة في تاريخ العلوم- نشأتها في المشرق- انتقالها إلى الأندلس- دعم الأندلسيين لها- تأثيرها على أوروبا– دار الكتب العلمية- بيروت-ط1- 1424هـ/2004م- مج2- صص 854- 855.

35- ابن خاقان: مطمح الأنفس– ص 54.----36- طه عبد المقصود: نفسه- مج2- ص784.

37- طه عبد المقصود: نفسه– مج2- ص784- آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي– نقله عن الإسبانية – حسين مؤنس- مكتبة الثقافة الدينية– القاهرة– د ت– ص 189.

38- طه عبد المقصود: نفسه– مج2- ص 784.----39- ياقوت الحموي: المصدر السابق– مج6- ص 619.

40- هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الأزدي اليحمدي البصري، المكنى أبا عبد الرّحمن الفراهيدي. ولد سنة 100ه/718م كان من النحاة اللّغويين، وهو أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها. كان من الزهاد في الدنيا، والمنقطعين إلى العلم. روى عن أيوب وعاصم الأحول وغيرهما، وأخذ عنه سيبويه والأصمعي والنظر بن شُميل. يقال: أنّه دعا بمكة المكرّمة أن يرزقه الله تعالى علما لم يسبَق له، فرجع وفُتِح عليه بالعروض. أما نسبته الفراهيدي، فتعود إلى فراهيد بن مالك بن فهم بن عبد الله بن مالك بن مضر بن الأزد، وقيل: هو منسوب إلى فُرهود بن شبابة بن مالك بن فَهْم. وأبوه كان أول من تسمّى باسم أحمد بعد النبيّ (صلى الله عليه وسلّم). له عدّة مؤلّفات، منها: "العروض الشواهد" و"النقط والشّكل" و"الجمل"، وغيرها من المؤلّفات. توفي بالبصرة سنة 170هـ أو 175هـ أو 160هـ/786م– 791م– 776م. القفطي: إنباه الرواة– ج1- ص 376 وما يليها- السيوطي: البغية– صص 450- 451.---- 41- ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس– صص 101- 102.

42- هو سهل بن محمد السِّجستاني الجشميّ النحوي اللّغوي المقرئ، نزيل البصرة وعالمها، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش مرتين. كان عالما باللّغة العربية والشّعر، حسن العلم بالعروض، وله شعر جيّد. يصيب المعنى، على الرّغم من أنّه كان غير حاذق في النّحو. له عدّة مصنّفات في اللّغة والقرآن، وقد قال في حقّه، المبرد: ولو قدم بغداد لم يقم له منهم أحد. إضافة إلى ذلك، فقد كان جمّاعا للكتب. بقي على ذلك إلى غاية وفاته سنة 255هـ/866م. القفطي: إنباه الرواة– ج2- ص 58 وما يليها- السيوطي: بغية الوعاة– صص 488- 489.

43- طه عبد المقصود: نفسه– مج2- ص 782.----44- الزبيدي: لحن العوام– تحقيق رمضان عبد التواب– القاهرة– 1964م– صص 6- 7.

45- الحميدي: المصدر السابق – ص 52.----46- السيوطي: بغية الوعاة- ص 94- ياقوت الحموي: إرشاد الأريب– مج6- ص 619.

47- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون- دار الفكر- بيروت- دت- مج1- ص 5.

48- عمر رضا كحالة: المعجم- ج3– ص 224.

49- الحميدي: نفسه– ص 52- الضبي: المصدر السابق– ص 64- ياقوت الحموي: نفسه – مج6- ص 619.

50- ابن فرحون: الديباج المذهب– ص 359- عياض اليحصبي: ترتيب المدارك– ج2- ص 201.

51- السيوطي: بغية الوعاة– ص 94.